

أيام حلوة و عصبية .. في مستشفى المدينة :

جلال خشيب .

2012/07/12

في مثل هذا اليوم وهذه الأمسية الجميلة من العام الماضي كنتُ مُسجّي على فراش المستشفى فاقدا للوعي ... بدأت القصة قبل حوالي العامين قضيتها مع آلامي بين مستشفيات المدينة و أطبائها ، كنتُ على ما يرام و لكن شكوكي و وساوسي تزداد يوما بعد يوم كلما اجتاحتني موجة الآلام القوية ، و في كلّ مرّة كنتُ أحملُ فيها إلى الطبيب بعدما تزداد حدّت الألم إلى اللامحدود ، لم أكن أعود إلى حالتي الطبيعية إلا بعد حقنة من الطبيب و بعض من أدويته المهدئة ، هذا كلّ ما يستطيعون القيام به كما كانوا يدّعون ... إلى أن فتك بي الألم ذات ليلة فأرسلني أطباء المستشفى المركزي إلى مستشفى الكلى ، و بعد فحوصات طبية عديدة و متكرّرة ادّعى الطبيب هذه المرّة أنّ ميكروبا ما يفتك بأسفل بطني ، " قد يستغرق شفائك مدّة طويلة و لكن احمد الله أنّك عالجت الأمر و أنت صغير ، ما عليك سوى متابعة تناول دواءك و ستكون على ما يرام بعد مدّة من الزمن " ... كانت كلمات الطبيب مطمئنة نوعا ما و لكنّ علمتني السنين ألا أتق في كلام الأطباء ، ربّما لم يُحسن تشخيص المرض فالآمي استمرت بين الحين و الآخر رغم انتهائي من هضم وصفته الطبية ، فضلا عن ذلك فقد كانت لي ذكريات سيئة عن هذا المستشفى ، فهنا توفي جدّي ، و هنا قاست والدتي ويلات الألم مع مشاكل الكلى و لا تزال ...

في ليلة ما و في تمام الثالثة فجرا ، حملوني حملا إلى مستشفى الكلى أصرخ بشدّة مشتكيا قسوة الألم ، كان المستشفى خاليا إلا من بعض الحرّاس و مُرضي الليل ، مريض أو مريضين في الغرفة المقابلة من قسم الاستعجالات بينما ألقوني في غرفة أخرى وحيدا أكافح آلامي ، كانت الوالدة تشدّ على يدي تشجعي و قد أرهقها حالي فلم تعهد رؤيتي يوما أشتكى من شيء أو أعبئ لآخر ، سُحقا فلم يكن في هذا المستشفى المقيت أطباء و لم تنفع حقنة الممرض في شيء و اضطررت بذلك إلى تحمّل الألم ساعات إلى الصباح ، كانت حوالي خمس ساعات مرّت عليّ ظهرا من الزمن ...

و أخيرا جاء المهدي المنتظر ، جاء الحكيم المخلص ، منقذ البشرية من بطش الآلام ، و أخيرا جاء الطبيب و أشرقت معه شمس الصباح ، طرح عليّ بعضا من الأسئلة كالعادة عاين بعض التحاليل و صور أشعة كنتُ أجريتها مؤخرا .. " مكانك ليس هنا يا شباب ،

فالمرض الذي أتيت لأجله هنا قبل مدة لم يعد موجودا و أنت الآن تُعاني شيئا آخر ، يجب أن تحملوه إلى المستشفى الجامعي " ... هه يا ويحي قال المستشفى الجامعي و كأني أسمعهم يقول احملوه إلى مركز التعذيب .. سيقودونني إذن إلى عقر الجحيم ...

حملنا وصية الطبيب و اتجهنا فورا صوب الجحيم ، عذرا أقصد صوب المستشفى الجامعي ابن باديس فاسمه يبعث حقًا على الاطمئنان و يُحيي فيك أملا سحريا بالشفاء العاجل ... كان قسم الاستعجالات مكتظا كعادته ، رجلٌ ممدد هناك على الحمالة ، طفل يصرخ إلى جانب أمه ، و شابٌ يمطرُ الأطباء شتائم صيفية حارة يُرددها مترجلا ببلاغة و كأنه يقرأها مباشرة من الورق ... كان مظهري الشاحب و المتألم و أنا أتأبط ذراع والدتي من جهة و عمي من جهة أخرى قد شفح لي عندهم ، فبعد أشعة أخرى أدخلني الطبيب غرفة التعذيب " سيستغرق الأمر قليلا من الوقت و كثيرا من الشجاعة " .. لم أفهم ما كان يقصده بالضبط " كثيرا من الشجاعة ؟ .. " إلى أن طلب مني رفع رأسي و أنا ممدد ، حاول الرجل إدخال أنبوب طويل عبر أنفي بعدما دهنه بشيء ما ، تذكرت حينها ما كنت أقرأه عن أساليب التعذيب في أقبية المخبرات في جمهورياتنا العربية الأفلاطونية ، كما تذكرت أيضا حادثة طريفة عشتها لما كنتُ صغيرا في هذا المستشفى بالذات حينما كُسر أنفي في مباراة كرة قدم و حاول الطبيب إرجاعه كما كان عبر مفك صغير زلزل به أنفي ثم أراد أن يُدخل قطعة طويلة من القماش "ضمادة ملفوفة" كاملة داخل انفي فأبيت و أفلته و هربت ، كان والدي ينتظر في الخارج و أذكر أنذاك كيف هربت من الغرفة باكيا و قطعتي الضمادة تتدلى من أنفي مملوءة بالدماء و كأني ديكٌ روميٌّ هاربٌ من مقصلة الموت ... على كل حال فقد أردت تكرير سيناريو الهروب الكبير على طريقة مايكل سكوفيلد ، لكن صراخ الطبيب حالت دون ذلك فقد جلبت صرخاته بعضا من أعوان الاستخبارات الحاصلين على شهادات عليا في تعذيب المجرمين .. كانت بينهم فتاة صغيرة و جميلة ربما تكبرني بسنوات قليلة ثلاثة أو أربعة على أكثر تقدير و لكنّها تبدو مظهرا في مثل سنّي فاستحييت ، فمن العيب أن أظهر بمظهر صبياني جبان أمام حسناء رقيقة كهذه ، لذا أبدت رباطة جأش ، مستذكرا فيلم "القلب الشجاع" حينما كان ويليام والاس ممدودا على المقصلة يُرهب جلاديه بشجاعته الفدّة ... كنت أنظرُ إلى جمال الطبيبة و إذا بها تستأذن زميلها لتعلمه أنّها من سيقوم بهذه العملية ، فتغيّرت نظرتي إليها فورا كيف لهذا المظهر الجميل أن يقوم بشيء قاس كهذا و ببرودة أعصاب ، يا لها من مهنة مقبّية ، إنّها تجعل قلب المرء قاسيا بالفعل ... لن أنخدع بمظهر الجمال بعد اليوم ...

مرت عملية إدخال الأنبوب بقسوة شديدة ، فقد أدخلوا الأنبوب عبر انفي لأشعر به مارا في حلقي إلى أن وصل المعدة بينما كنتُ أختنق و لا أجد هواء ... أخرجني الطبيب ببطء

فلمنتُ القاعة بوادي من القي ، لا يهمني ذلك فهم يستحقون أن يروا فضلات معدتي بعدما عبثوا بها ، فليستمتعوا إذن بمظهره الجميل ... بعدما استقر حالي قليلا جاء الطبيب مُرفقا بتلك القاسية الجميلة ، لم أعد أطيق النظر إلى عينيها بعد الآن و لكنّها فاجأتني حينما أخبرتني أنّها ستُجري لي فحصا "بالسكانير" ... ماذا "السكانير" ؟ .. لم أحلم بأن أسمع ذلك يوما ما خاصة في هذا المستشفى اللعين الذي ينخره الفساد كما يقولون ، فقد قضينا وقتنا لا بأس به هناك لنحظى بفرصة إجراء "السكانير" للوالدة و لم نؤقّق في ذلك ، تحتاج إلى معرفة شخص كبير هناك ، فهم لا يُجرونه إلا في عمليات طارئة جدًا هذا ما كان الجميع يردده .. لذا لم أفهم ما الذي يحدث لي بالضبط ، هل أوصى أحدهم بي هنا ؟ هل تعرفني هذه الفتاة ؟ .. مستحيل ، إذن فحالي تبدو في نظرهم طارئة ؟ ... لا لا أدري فلا يبدو لي ذلك حقا ... إذن فقد أعجبت بي هذه الجميلة و أرادت أن تعنتي بي ههههه ، ربّما و من يدري ، فكما يقول العاشقون يمكن للحب أن يقع من أوّل نظرة رغم فارق السن بيننا فلا يعترف الحب بأي قانون بشري على الإطلاق ... على كل حال بدى لي بعدها أن ليس هذا و لا ذاك .. إنّها عناية الله بعبدته ، فضله ، توفيقه و امتنانه ..

بعد عمليات أشعة " الإيكوغرافي" و بعض "المرح" الذي قضيته مع الأطباء هناك اقتادوني إلى قاعة "السكانير" ، كانت القاعة زجاجية الجدران فإمكانك رؤية الأطباء و الأهل خارج القاعة ، وجدتُ هناك جميلة أخرى ، لم تكن بجمال الأولى طبعاً و لكنّها تبدو مقبولة على كلّ حال .. ساعدتني في الجلوس على طاولة "السكانير" بالطريقة التي تريدها بينما ذهبت هي لُحضرَ حُقنا ليست كالحقن ، كانت حقنا كبيرة جدا و مخيفة ، فاستعلمت منها هل تُعدّها لحقن بقرة حديقتهم ، فضحت و بشرتني بأنّها ستكون من نصيبي ... فابتسمت لها بحذر بينما أراقبها ماذا ستفعل ، أين ستحقنها بالضبط ... انتظرت منها أمرا بإبداء منطقة الحقن المعهودة و لكنّها لم تطلب ذلك ، أوووووف الحمد لله لقد غرزتها في المصل الموصول بذراعي منذ أن دخلت إلى المستشفى ، قالت بأن حرارة غير عادية ستحتاج جسديك ، فانتظرتها و كأني أنتظر حكما بالإعدام عبر الحقن ...

حلّ المساء و لازلتُ في المستشفى ، لم أتناول شيئا منذ البارحة لذا شحب وجهي و بدوتُ أصفرا كالميت ، استمرت طبيبتي الجميلة في الاعتناء بي و ها هي الآن تحتجز لي غرفة من غرف التعذيب في قاعة الاستجالات ، قالوا بأنّي سأمكث بعضا من الوقت هنا حتى تتحسن حالي قليلا و يقرّر طبيبهم الكبير ماذا سيفعل بي ، رحل الأهل بعدما وفرّوا لي ما أردت و بقيت هناك وحيدا أطلع كتابا بعدما زال الألم .. كانت أوّل ليلة لي أقضيها في مستشفى ، فرغم التعب و الإرهاق الشديدين لم أستطع النوم بشكل جيد ففي كلّ مرّة تحضر حالة طارئة تملئها الصرخات ، أو يدخل أحد الممرضين المعتوهين يبحث عندك عن شيء

من الطعام ليأكله ، إلى أن دخلوا إلى غرفتي حاملين معهم شابا في مثل عمري أصيب في حادث مرور ، كان مسجى دون حراك ينظر إلى السقف ، يعتني به والده هناك و كل ما كان يطلبه الشاب ألا تعلم والدته بما حدث له في هذا الوقت المتأخر من ... ثم عم بعدها سكون الليل ...

بعد غفوة قصيرة استيقظت مرّة اخرى على رائحة كريهة جدا تنبعث من المكان ، لا لا ليس كما تفكرون الآن فلم أفعلها في ملابسي ، و لا شريك الغرفة فعلها أيضا .. كانت رائحة قسم الاستعجالات بأكمله لا أعرف كيف اصفها إلا كونها قاتلة ، كانت الساعة حوالي الثالثة و النصف صباحا ، حملتُ قارورة المصل بين يدي و خرجتُ إلى الخارج أين وجدت بعضا من حراس الليل يتسامرون ، كان باب قسم الاستعجالات يقع في مكان مرتفع قليلا و يطلُّ على منظر رائع جدًا لجسر قسنطينة المعلق بين صخرتين عتيقين ، كانت الأضواء الملونة تزين الجسر الصامد المتأرجح في هواء الليل ، و كانت زخاتُ مطر صيفية تتهاطل على المكان لترسم أبهى منظر رأيته في حياتي ، استنشقتُ أنقى هواء ملئتُ به رنتي بعدما قُبرتُ في غرفتي بتلك الرائحة النتنة .. جلستُ قليلا أتأمل بهاء مدينتي الرائعة ليلا تُداعبني نسماّتُ هوائها العليل ، إلى أن طردني الحارس لأرجع إلى غرفتي الكريهة ، لم يحضر لي الأهل قارورة العطر ، فكرتُ ، و لم أجد طريقة للنوم إلا أن وضعتُ قطعة صابون عطرة أسفل انفي إلى أن حلّ الصباح ...

حرصت على الاستيقاظ باكرا بعدما علمتُ أنّ الطبيب يزور مرضاه كلّ صباح رُفقة وفد من الأطباء و الممرضين في طور التعلّم .. حاولتُ أن أحسن من مظهري الأشعث قليلا فمن يدري من سيأتي مع الطبيب ، ربّما سترافقه تلك الجميلة .. فاستلقيتُ على سريري قرابة ساعة أو ساعتين أطلع قليلا حتّى لا يقتلني الملل ، إلى أن سمعتُ جلبةً قطعت عليّ حبل الأفكار ، ها قد أتى وفد الطبيب .. كان رجلا كبيرا في السنّ و لكّنه يحظى بحيوية و هيبه لمحتها في تصرفات وفده المطيع ، تحرك صوبي مباشرة و بسرعة ، مُبديا استيائه بطريقة غير مألوفة حينما رأى كتابا بين يدي و كأنه الشخص الوحيد الذي حمل كتابا بين يديه في هذا العالم ، ماذا يحسبُ نفسه بين وفد نعاجه ، ربّما يشاهد سلسلة الدكتور هاوس لذا يحاول التصرف بهذه الطريقة التي تمنحه مكانة خاصة بين أقرانه ... على كل حال انتهى من فحصه ملقيا بعضا من تعليماته لوفده التي لم افهم منها شيئا فقد كانت لغة فرنسية بمصطلحات طبية محضة ... خرج الجميع و عادت طبيبة كنتُ قد لمحتها ضمن الوفد ، كانت هذه المرة طبية صغيرة في مثل عمري أو أقل قليلا ، أرادت ان تفحصني مرّة أخرى ، اخذتُ تحدّق في عيني بجرأة يملؤها شيء من حرج مصطنع ، و راحت تسألني منذ متى و انا اعاني هذه الآلام ، كانت لبقة معي ، حاولت إبداء لطفها و رقتها ، فاغتمتُ

الفرصة لتشرح لي طلاس الطبيب ، قالت بأنهم سيجرون لك عملية جراحية فلم تُلاحظ تفاجئي بذلك ، فقد سبق و أن اخبرتني البارحة تلك الجميلة الأولى ، و اضافت إلا انّ العملية لن تكون هذه الأيام ، هي بسيطة كما ادعت و لكنها تتطلب بعضا من الوقت و شيئا من الأدوية حتى تكون سهلة غير مضرّة بمناطق أخرى كالأمعاء ... على كل حال فقد قرأتُ في عينيها شيئا من الإعجاب لكنها لم تكن الوحيدة التي شعرتُ بإعجابها بي هناك ، فقد كانت هناك جميلة أخرى تدرسُ التمريض لا زالت في طور التعلّم ، كانت تزورني كلما فرغت من عملها ، أحببت محادثتي ، كنّا نتبادل الحكايات و نُطلق النكت في كل حين و قد خفّف عليّ هذا الجو الجميل شيئا من التفكير في عملية الإعدام التي سأقدم عليها قريبا ...

غادرتُ المستشفى بعد ثلاثة أيام بعدما حظيت بغرفة أخرى أكثر راحة و لكنها بعيدة قليلا عن مكان عمل الطبيبة و الممرضة الجميلتين ، قالوا بأنّي سأرجع بعد خمسة عشر يوما لأجري عملية استئصال للزائدة الدودية ، تلك الزائدة التي نالت مئي مدّة طويلة ، قضيتُ أيامي بين اضطراب و سكينه ، اضطرابٌ يُحدثه التفكير في مكان اجراء العملية "مُستقتل" ابن باديس الجامعي -وليس مستشفى- خاصة بعدما حدّثني طبيبٌ يعمل هناك درس معي -تخصصه الآخر- أيّام الجامعة أنّ أكثر عمليات مقاضاة الأطباء في فرنسا كانت نتيجة لإخفاق هؤلاء الأطباء في تشخيص الزائدة الدودية رغم بساطة ازالتها فزادني ذلك رُعبا ، إنّه يتحدّث عن مستشفيات فرنسا يا جماعة و ليس معتقلاتنا نحن ، إلا أنّ سكينه الله قد حلّت في قلبي فلن يصيبنا في النهاية إلا ما قدره الله لنا ...

مرّت تلك الأيام و وجدنتي أستعد لدخول المستشفى مرّة أخرى بعدما قضيت ليلة البارحة مع بعض الأصدقاء علني لن أراهم مجدّدا و من يدري ليست لي ثقة بعث مثل هذه مستشفيات ، و في الحقيقة كان عبثا حقيقيا ، فقد رفض الطبيب البديل التي وجدته إجراء العملية إلا بعد مرور حوالي عشرون يوما أخرى متعذرا بأنّ الطبيب المسؤول عني غائب اليوم ، إنّه في العاصمة ، كما قذف في وجهي بعضا من الأعذار الأخرى التي لم أحسن الانصات إليها حينها ، فقد كنتُ أفكر في شتمه أو لكمه ، لقد قضيتُ خمسة عشر يوما على أعصابي و يريد مئي أن أعيش عليها أياما أخرى أيضا ...

انقضت تلك الأيام كلمح البصر إلى أن وجدتُ نفسي هذه المرّة على مرمى حجر من غرفة العمليات ، لم أكن متأكدا أنّي سأجري العملية يومها فقد قال طبيب آخر "ربّما سنجرىها لك في الخريف" متذرعا بحرارة الصيف غير المناسبة لإجراء العمليات ، كنتُ

رفقة الوالد و أحد أصدقائي المقربين الذي تركتُ له بعضاً من الوصايا و كأني سأقاد إلى حتفي بعد قليل ، لم أعلم والدتي بذلك إذ لم تحضر إلا في اللحظة الأخيرة لأحظى بقبلاتها و دعواتها قبل الدخول إلى المقصلة ... كان الوقت عصراً فقد سمعتُ الأذان قبل قليل ، جُردتُ من ملابسي و لفتتُ برداء أبيض ، بينما أحضر أحدهم كرسيًا متنقلاً لنقلي إلى غرفة العمليات ، كنتُ أبدي و كأني حاجٌ مُقعدٌ يطوفون به طواف الإفاضة و لكن في المستشفى ، طمئننتُ دموع أُمِّي و مخاوف أبي التي تُخفيها صلابة الرجولة و صرامتها ، كنتُ مُطمئناً جدًّا خاصة بحضور طبيبتي الجميلة ، أقصد تلك الأولى الجميلة القاسية و ليس طبيبة "السكانير" أو تلك التي أعجبت بي و تُقاربنني سنًا و لا الممرضة المشاكسة التي لم أحظى بفرصة توديعها آنذاك ...

ذهب الجميع و جلستُ على طاولة العمليات وحيداً ، أعلمتني طبيبتي الجميلة أنّ الطبيب سيتأخر و لن يستطيعوا الانطلاق إلا بوجوده ، لم تتوانى في شتمه أمامي ، سألتها عن السبب فقالت أنه يستحق ذلك فعندما أرى وجهه سأعرف أنها محقة ... بقيتُ مُمدداً قرابة الساعة أَلْفُ نفسي بردائي الأبيض ، و أراقب المكان الذي يفتقر إلى أدنى شروط النقاوة و القدسية التي تحظى بها عُرفُ العمليات ، لم يتسن لي الوضوء لأصلي صلاة العصر لذا اجتهدت على طريقي الخاصة متذكراً قصة الصحفي الشهير "عبد الباري عطوان" و اجتهاده في وضوء الصبح أيضاً في أعالي جبال تورا بورا المتجمدة شتاءً ، فصليتُ هناك بطريقة ما -لا تسألوني عنها فقد اجتهدتُ هنا أيضاً - إذ لم أكن أريد مغادرة الحياة و في عنقي صلاة ضائعة .. قضيتُ بقية الوقت مع مساعدين هناك نُثرثر مازحين ضائنين أنّهما يخففان عني قليلاً حرج العملية إلى أن جاء الطبيب ... قاموا بتثبيتتي و إعداد مسرح الجريمة ليكون ملائماً ، أخذتُ أنظر إليهم و هم يرتدون قفّازاتهم و مآزرهم البيضاء ، كانت طبيبتي الجميلة التي اعتنت بي طيلة وجودي هناك أحد هؤلاء فبعث ذلك في نفسي اطمئناناً أكبر ، أرادت مسؤولية التخدير أن تلهيني ببعض أسئلتها عن اسمي ، أين أسكن و ماذا أدرس بينما كنتُ ألعن غيابها سرّاً ، طلبتُ منها التوقف رجاءً عن طرح أسئلتها الصبيانية لأتفرغ سرّاً- لذكر الله فيكون آخر كلامي شهادة التوحيد .. داعياً الله السلامة ، فلا زلتُ صغيراً و لم أتزوج بعد ، كما لم أحقق بعد أبسط طموحاتي في هذه الحياة ، تمنيتُ أن يمرّ الوقت سريعاً و ألا ينسى أحدهم مقصاً أو هاتفاً نقالاً في بطني بعدما يُغلق الجرح ... أخذُ المخدّر يسري في جسدي ، شعرتُ بثقل متزايد شيئاً فشيئاً إلى أن اختفى الوجود و غرق الكون في ظلام دامس ...

انتهت العملية بنجاح و نُقلت ليلاً إلى غرفة واسعة مريحة ، لم أستيقظ إلا على ومضات سريعة ، كانوا يحملونني من طاولة متنقلة إلى سريرتي و كانت راحة قوية تجتاح جسدي

اصطكت لها أسناني بينما لازال لساني رطبا بذكر الله -كما حدثوني لاحقا- ، كانت منة عظيمة من الله أن نبقي مرتبطين به في لحظات كهذه لا نذكره إلا هو سبحانه جلّ في علاه

...

قضيتُ هناك أياما قليلة تقاسمت لياليها وجع الآلام مع رفقاء الغرفة ، بجانبني رجل خمسيني أجرى عملية خطيرة على المعدة بعدما انفجر شيء ما في بطنه كما كان يدّعي ، و شيخٌ كبير متقلب المزاج يُمطر الممرضة سبابا ، فقط لأنهم تركوه عاريا و لم يجلبوا له ملبسه كما كان يزجر ، بينما نخفي نحن ضحكاتنا خوفا من لسانه الحاد ، هناك في الجهة المقابلة لسريري كان هناك طفل صغير من جنوب البلاد نجى بأعجوبة من الموت بعدما دهسته شاحنة ، و رجل ثلاثيني آخر سقط من أعلى المبنى و أصيب بارتجاج دماغي حاد ، لم يُقم معنا إلا ليلة واحدة ثم نُقل فورا إلى العناية المركزة ، كانت حالتني أخف الحالات و أبسطها ، رُحْتُ أ حمد الله على نعمة الصحة خصوصا لما نرى أناسا كهؤلاء ، كان الجميع يتقاسم آلام الليل و صرخاته ، دون أن يتقدّم أحد الممرضين ليمدّ لك يدّ العون .. كُنّا ننتظر الصباح بشغف لننال عناية الأهل و شرف زيارة طبيبنا الموقر و وفده المطيع ، في الحقيقة لم أكن أريد أن أرى وجهه إطلاقا و شغفي له كان بسبب تلك الطبيبة الصغيرة و حسب و كذا زيارة صديقتي الممرضة مع زميلتيها الاثنتين ، كنتُ أطلق عليهن مازحا لقب مصاصي الدماء فقد كانت مهمتهن نزع الدم أو غرز إبر المصل في يدي ، كنّ يزرنني باستمرار و قد بحثن عن غرفتي بعدما نُقلتُ من الأولى فقط للاطمئنان على صحتي .. يا له من حظّ جميل في هذا المكان البائس ، فحتى أسوء الأمكنة و الظروف تحمل لك في طبيّاتها أشياء و ذكريات جميلة ...

